كليّة التربية للبنات

قسم التاريخ

الصف الثاني/ التاريخ الأُموي. **محاضرة بعنوان**

(حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي) The movement of Mukhtar bin Abi Obaid al-Thaqafi

أ.د. حَمَّـــاد فرحان حمادي المحمدي .prof. Dr. Hammad f Hammadi

تبعت حركة التوابين ، حركة أخرى تُنسب الى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وتعرف بالمختارية . تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع سعار التشيّع العلوي . كما ساهمت إلى حد كبير ، في تطوّر حركة الشيعة كفرقة دينية وسياسية ، فحدّدت الكثير من اتجاهاتها . كما كان لها تأثير هام في التاريخ الاجتماعي والسياسي للعصر الأموي خاصة ، وللتاريخ الإسلامي عامة ، إذ أفادت حركات أخرى معارضة كالدعوة العباسية.

ظهر المختار في ميدان السياسة في عام (64هـ) ، واتصف بالطموح السياسي ، وابرز ملامحه خاصتان : الاتجاه الشيعي ، ونزعة السلطة . وهو أوّل زعيم في الكوفة التقى مسلم بن عقيل . واختار هذا الأخير منزله كمقر له ، كما قام بدور هام في التعبئة الشعبية فيها عشية خروج الحسين عليه السلام اليها ، مما دفع الوالي إلى سجنه ، ثم أطلقه بعد استشهاد الحسين وأمره بمغادرة الكوفة . فتوجّه إلى مكّة وعندها إتصل بعبد الله بن الزبير ، ونسّقَ معه ضد الأمويين على أساس شروط ثلاثة:

1. أن لا يقضي أمراً دونه.
2. أن يكون أول مَن يأذن له.
3. إذا ظهر استعان به على أفضل عمّاله.

والراجح أنّ هذا التنسيق جاء نتيجة استغلال حاجة ابن الزبير لمساندة قوى اسلامية أخرى في صراعه مع الأمويين ، ليحصل المختار على ما يريد من منصب سياسي . لكن ابن الزبير كان قليل الثقة بالمختار بفعل تقلباته السياسية ، ومن جهته فإن المختار لم يكن مستعداً بأن يثق به أكثر من ذلك ، فتباعد الرجلان وعاد المختار إلى الكوفة مقنعاً نفسه بأنها الأرضية المناسبة لتحقيق آماله السلطوية.

وصل المختار إلى الكوفة يوم الجمعة في (الخامس .العشرين من شهر رمضان عام 64هـ) في ظل نشاط محموم للثأر للحطين عليه السلام ، فاستغل حركة التوابين

لنيل أغراضه ضد ابن الزبير والأمويين ، رغم أنّه لم يكن هناك مجال للتنسيق بينه وبينهم بفعل اختلاف الاتجاهات السياسية مع الأخذ بعين الاعتبار وحدة الشعور بين الطرفين .

ومن جهة أخرى وجد المختار في سليمان بن صرد منافساً له. فراح يعمل على تفريق الشيعة انه بتأكيده أنّه مرسل إليهم من قبل المهدي ابن الحنفية . فانقسم الشيعة إلى قسمين: قسم مع سليمان يريد الخروج للثأر للحسين ، وقسم آخر يريد الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية ، مما أثّر سلباً على قدرات التوابين العسكرية.

وفي الوقت الذي خرج فيه التوابون إلى عين الوردة ، كان المختار، مرّة أخرى ، وراء قضبان السجن بفعل نشاطه المعادي لإبن الزبير ، وتعيد الفرصة نفسها ، ويغادر السجن بعد تدخّل صهره ، وأشراف الكوفة.

وانتهز المختار خلو الساحة من الزعامات الشيعية ، فتحرّك بتخطيط جديد ، وبحكم نشأته في العراق ، فإنه كان على اطّلاع على أوضاع الكوفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية .

فمن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان هناك تمايز بين العرب والموالي من جهة ، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى . فنشأت نتيجة هذه السياسة التي نفّذها بعض خلفاء بني أميّة وولاتهم ، فئة اجتماعية محرومة من الامتيازات ، تضم الضعفاء الذين نظروا إلى محمد بن الحنفية كمنقذ لهم ، فاهتم بهذه الفئة بهدف استقطابها ، وادّعى أنّ المهدي ابن الوصي محمد بن علي أرسله إليهم أميناً ووزيراً لقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفاع عن الضعفاء .

والواقع أنّ المختار كان أول مَن أدرك ، وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع خدمة لمصالحه ، فتبنى مطالب الفئات الضعيفة بتحقيق المساواة مع الأشراف .

أمّا من الناحية السياسية ، فقد أدرك مدى عمق الصراعات بين العرب أنفسهم ، بين الذين شاركوا في الفتوحات الأولى وبين الذين هاجروا فيما بعد ، بالإضافة إلى الصراعات القبلية ، فسعى لاستغلال هذه الأوضاع ، ورأى أنَّ مصلحته تكمن في التحالف مع القبائل اليمنية لا سيما قبيلة النخع وزعيمها إبراهيم بن الأشتر ، فاستماله إلى جانبه .

أمّا من الناحية الدينية ، فقد اتّسمت حركته بمحتواها الديني العقدي ، فنادى بفكرة المهدية في شخص محمد بن الحنفية ، فأطلق عليه لقي (المهدي) ، كما استخدم فكرة البداء التي مكّنته من تغيير آرائه من حين إلى آخر ، وأضفى على نفسه جلالة دينية ، فبات كمن يعلم الغيب ، أو يأتيه الوحي من السماء .

وتمكّن أخيراً ، من ضم بقايا التوابين ، والموالي ، وبعض القبائل اليمنية ، وأضحى الزعيم الوحيد الذي يعترف به شيعة الكوفة .

وبعد أنْ تهيأت ظروف التحرّك ، ووُجدت الأرضية الصالحة ، استولى المختار على الحكم في الكوفة ، بعد أن هزم جيش الوالي عبد الله بن مطيع الذي اتّصف بالجهل السياسي ، فغادر هذا مقرّه واختفى عن الأنظار .

وصعد المختار المنبر في الكوفة ، وأعلن برنامجه على الناس ، ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل والجبال ليحكموا بإسمه.

ويبدو أن متاعب المختار الجدّية برزت بعد السيطرة على الكوفة ، ذلك أن حركته لم تحمل في طياتها عوامل الاستمرارية ، وأنّ الاحتفاظ بالسلطة كان مصحوباً بأخطار داخلية وخارجية .

ففي الداخل ، كان التلاحم الشيعي وراءه مرحلياً ومصطنعاً ، لا سيما وأنّه فشل في التوفيق بين الشيعة المعتدلين والشيعة الغلاة . كما أنّ غالبية أهل الكوفة ، من غير الشيعة ، الذين واجههم بشدّة، كانوا يملكون القدرة المعنوية والمادية لإثارة المشاكل ضد حكمه. أمّا الأشراف العرب ، فإنهم لم يثقوا به منذ البداية ، وشكّوا في .ولائه للقضية العلوية ، فطاردهم حتى اضطرهم للخروج إلى البصرة ، محتمين بمصعب بن الزبير والي البصرة ، كما فقد تأييد ابن الأشتر الذي كان ينتمي إلى طبقة الأشراف ، فتركه ولحق بهم .

والواقع أنَّ المختار قد تخلّى ، مؤقتاً ، بعد وصوله إلى الحكم عن عزمه على قتل قتلة الحسين عليه السلام ، وعمل على تحقيق الاستقرار السياسي الداخلي من خلال التوفيق بين الأشراف والضعفاء وذلك ليواجه أعداءه في الخارج في اتجاهين متباعدين . فقد كان جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد يتقدّم باتجاه الموصل ، وفي الوقت نفسه كان مهدداً من قبل ابن الزبير في البصرة والحجاز.

وقد قوّضَ هذا العمل الهيكل الاجتماعي الذي كانت تستند عليه سيطرة الأشراف . ولم يكن بإمكانه أن يرضي فريقاً على حساب الفريق الآخر. والراجح أنّ الظروف السياسية آنذاك هي التي حدّدت اختياره في التزام جانب الضعفاء .

وفي الخارج ، كان يتربص بالمختار خطران ، خطا ابن الزبير الذي لا يزال يملك القوة الرئيسية في العراق ، وخطر الجيش الأموي الذي كان يزحف باتجاه العراق .

وحتى يتفرّغ لجيش الشام ، حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء على البصرة ، إلّا أنّه فشل في ذلك ، كما اضطرّت الفرقة العسكرية التي أرسلها للتصدي لعبيد الله بن زياد ، في الموصل ، من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة.

ترتّب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه داخل الكوفة تزعّمها الأشراف ، إلّا أنّه قمعها بسرعة ، ثم استغلّ الوضع السياسي للثأر من قتلة الحسين وقد حقّق المختار بهذا التصرف هدفين:

الأول: أنّه برَّ بوعده ، ولو بعد حين ، بالثأر للحسين.

الثاني: أنّه أنزل العقاب بأولئك الأشراف الذين خرجوا على حكمه بعد أن ذهبت سدَ جميع محاولاته للتفاهم معهم.

هذا وقد نتج عن حملته ضد الأشراف ، أمران:

الأول: أنّ عشرة من الأشراف والقادة العرب ، من غير الشيعة ، استطاعوا الهرب إلى البصرة والتجأوا إلى مصعب بن الزبير. وقد أدّى هؤلاء دوراً بارزاً في تحريضه ضد المختار.

الثاني: أنّه زاد من شعبيه بين الشيعة وكسب رضا محمد بن الحنفية.

ثم حدث أن أرسل المختار ، بعد الانتهاء من أحداث الكوفة ، جيشاً آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المتجه نحو العراق. ونجح هذا القائد من الانتصار عليه في معركة جرت عند نهر الخازر في (العاشر من شهر محرّم عام 67هـ) وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع الحصين بن نمير .

تعاظم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار وسيطر على شمالي العراق والجزيرة ، وبدا كما لو أنّه أقام دولة خاصة في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك في الشام ، لكنه لم ينعم بهذا النجاح بفعل أنّ حركته قد شكّلت تهديداً لحركة الاول ولسلطة الثاني ، وكان لا بدّ لأحدهما من أن يقضي عليه .

ومن جهته ، رأى المختار أن يسيطر على كامل العراق ، ويتوسّع على حساب القوتين معاً ، فأعدّ جيشاً لإنتزاع البصرة من يد مصعب .

في هذا الوقت ، انفضّ قائده إبراهيم بن الأشتر عنه ولحق بالأشراف في البصرة مما جرّده من معظم ما ملكه من طاقات عسكرية ، فأثّر ذلك سلباً على وضعه القتالي، حيث أُصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب ، في (منتصف عام 67هـ) ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدّد مصعب الحصار عليه ، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة.

وهكذا انتهت هذه الحركة الذي كان شغل صاحبها الشاغل الوصول إلى السلطة بأيّة وسيلة ، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والمطالبة بالثأر لهم. إذ سرعان ما انكشفت نياته وتخلّى عنه أهل العراق .